سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

فضل العلم
وصفات أهله وفضلهم

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن وجعله أصل العلوم، علم الإنسان ما لم يعلم، نحمده سبحانه علىٰ أن هيأ لنا أبواب الخيرات، ونسأله أن يثبتنا علىٰ ذلك إلىٰ أن نلقاه، وهو راض عنا غير مبدّلين ولا مغيرين ولا مفتونين، اللّٰهمَّ آمين.

وأشهد أن لا إلٰه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد:

فإنّ العلم وطلبه من أفضل القربات إلىٰ الله جل وعلا؛ بل عدّ جمع كثير من أهل العلم طلب العلم أفضل النوافل؛ يعني أنهم جعلوا طلب العلم أفضل النوافل التي يطلبها العبد، ولهٰذا فإن السّعي في نشر العلم النافع المقتبَس من كتاب الله جل وعلا ومن سنة رسوله ﷺ، ومما بينه أئمة الإسلام المؤتمنون علىٰ الدين في فهم الكتاب والسنة، إنّ السعي في ذلك من الجهاد في سبيل الله جل وعلا، ومما يراغم به الشيطان وأعداء الدّين، وهٰذا لاشك حاصل؛ لأن أهل العلم في كل زمان وفي كل مكان هم الذين يرثون الأنبياء، وإذا كانوا هم ورثة الأنبياء فإن ذلك يعني أنهم القائمون بأعباء الدين، فكلما ازداد العلم ازداد الخير، وإذا قل العلم كثرت الجهالة وكثر الشر.

ومن جهة أخرىٰ فإننا اليوم بحاجة كبيرة إلىٰ أعداد كبيرة من طلاب العلم ليفقِّهوا المسلمين في شرق الأرض وفي غربها، فالناس محتاجون اليوم إلىٰ من يبين لهم الحق ويبيّن لهم التوحيد الصحيح والعقيدة الخالصة ومعنىٰ اتباع السنة النبي ﷺ، ويبين لهم أحكام الشرع ويبينوا لهم ما به قوتهم في دينهم وما به اتباع منهج محمد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ.

وهذا نحتاج فيه إلىٰ أعداد كبيرة من طلّاب العلم سواء في داخل البلاد أم في خارجها؛ لأن الناس يحتاجون كثيرا إلىٰ طالب العلم ليعلمهم.

ومن القواعد المقررة في الفقه أنّ الوسائل لها أحكام المقاصد، فإذا كان المقصد بهذه المثابة من فضله وحكمه وأثره فإنّ الوسيلة لتحصيله وإقامته وبثه لها حكمه من جهة الوجوب الكفائي ومن جهة أيضا البذل فيه والسعي في نشره.

ولهٰذا المرء يؤجر علىٰ الوسيلة إذا كانت صحيحة شرعا، كما يؤجر علىٰ الغاية المتفقة مع الشرع، وقد قال الأصوليُّون: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. والوسيلة تبعٌ للمقصد، فإذا كان المقصد واجبا فوسيلته واجبة من حيث الحكم ومن حيث الأجر، وإذا كان المقصد مستحبا فوسيلته كذلك، وهكذا إذا كان المقصد محرما فوسيلته كذلك، إلا فيما استثني.

والعلم لمن قرأ القرآن وقرأ السنة وعلم هدي الأنبياء يجد أنه أهم المهمات، وأن به النجاة، قال الله جل وعلا: بسم الله الرَّحمٰن الرحيم ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[العصر]. الذين آمنوا هم أهل العلم علىٰ حسب ما تعلموه من الإيمان، فجمع بين العلم والعمل وقدّم العلم علىٰ العمل.

وأهل العلم قرنهم الله جل وعلا بملائكته فقال سبحانه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾[آل عمران]، فجعل الشهادة له بالوحدانية منه سبحانه -وكفىٰ بالله شهيدًا-، ثم بملائكته، وثم بأهل العلم، واقتران أهل العلم بصفوة خلق الله -وهم الملائكة- يدل علىٰ ارتفاع شأنهم وعلىٰ عظم فضل ما سعوا فيه وما اتصفوا به.

الأنبياء هم سادة العلماء، فكل نبيٍّ هو أعلم أهل زمانه بما أنزل الله جل وعلا إليه، والنبي ﷺ محمد بن عبد الله أرشده ربه جل جلاله وتقدست أسماؤه إلىٰ أن يطلب الازدياد من العلم فقال سبحانه لنبيه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه]، قال المفسرون: معنىٰ ﴿زِدْنِى عِلْمًا ﴾ أي قل يا ربي زدني منك علما، وقال آخرون: معناه يا رب زدني منك فهما.

قال سفيان ابن عيينة الإمام المعروف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: لم يزل الله سبحانه جل وعلا يزيد نبيه من العلم بالإنزال الوحي حتىٰ توفاه الله جل جلاله. وهٰذا لأن الآية كما هو معلوم مكية في سورة طه، والنبي ﷺ لم يزل الله جل وعلا يوحي إليه بالعلم ويفهمه حتىٰ كان بما أرشد الأمة إليه من العلم مستجاب الدعوة في هٰذه السورة ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾.

قال طائفة من أهل العلم: لم يأمر الله جل وعلا نبيه ﷺ أن يطلب الازدياد من شيء إلا من العلم فحسب؛ وذلك لأن العلم الازدياد منه ازديادٌ في الإيمان، ازدياد في تحقيق الشريعة، ازدياد في العبودية، ازدياد في العمل، ازدياد في الجهاد، ازدياد في أثر ذلك علىٰ خاصة الإنسان وعلىٰ عامة الناس، وأما عامة أهل الإيمان فإنهم درجات؛ يعني من بعد الأنبياء فإنهم درجات أعلاهم درجة وأرفعهم قدرا هم أهل العلم كما قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾[المجادلة:١١]؛ فجعل الجميع مرفوعين فخصّ أهل العلم بالرفعة درجات كما قاله طائفة من المفسرين.

وهذا يدلك علىٰ أنّ العبد الصالح إذا أراد القربىٰ من الله جل وعلا والطاعة له والاجتهاد والجهاد في سبيله، فإنّ أعظم الطرق إلىٰ ذلك العلم النافع؛ لأن بالعلم ازدياد الخير في نفس العبد وفي غيره، فالعلم فضله في هٰذه الشيعة عظيم، فضله يتعدىٰ أن يكون مقتصرا علىٰ عبادة من العبادات؛ بل فضل العالم علىٰ العابد -يعني علىٰ عابد المؤمنين- فضل عالم لأهل الإيمان علىٰ عابد المؤمنين كفضل النبي ﷺ علىٰ سائر الأمة، كما جاء في الأثر.

العلم يحتاج منَّا إلىٰ أن نَعْرِفَه وأن نتعرف فضله وأن نتعرّف منزلته حتىٰ نقبل عليه لأننا إذا علمنا شأن العلم وعلمنا فضله وعلمنا أثره فإن النفوس ترغب أكثر وأكثر في ذلك، فتحصيل العلم أعظم النوافل كما قلنا، والعلم منه واجب فرض علىٰ الجميع ومنه تطوّع؛ لكن بعد أداء الفرائض ليس ثم أفضل من العلم، كما قال ذلك جماعة من العلماء ورُجِّح علىٰ الجهاد في سبيل الله تعالىٰ -جهاد التطوع- لما له من عموم الأثر في الحاضر وفي المستقبل؛ بل هو في الحقيقة عُدة الجهاد وقوة النفس؛

لأن طالب العلم قوي الإرادة قوي النفس قوي الأثر لما يعلم من فضل العلم ومن رِضا الله جل وعلا عن عباده.

لهذا جاء في الحديث الصحيح: «**وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع**». العالم أو طالب العلم أو السائر في ذلك السبيل إذا سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلىٰ الجنة كما جاء في الحديث الصحيح، وهذا يعني أن فضل العلم علىٰ صاحبه أن أي طريق تلتمس فيه العلم النافع الذي مردّه ومأخذه من النص -من الكتاب والسنة ومن فهم أهل العلم- فإنّ ذلك سبيل إلىٰ أن يسهل لك به طريق إلىٰ الجنة.

العلم سبب لمغفرة الذنوب وازدياد الحسنات؛ لأن طالب العلم وهو يتعلم حسناته تزداد، وإنّ الحسنات يُذهبن السيئات، كما ذكرنا لك أنّ طلب العلم من أعظم العبادات فضلا في نفسه وأجرا وثوابا، فيكون -إذن- من أعظم الحسنات التي تُكفَّر بها السيئات قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾[هود]، وقال النبي ﷺ: «**اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**»، وهذا يدل علىٰ أنّ طالب العلم يزداد من الحسنات وتكفَّر بذلك سيئاته، إذا قرأ أو إذا كتب أو إذا حضر مجلس العلم أو إذا كرر وحفظ بالنية الصالحة فإنه مأجور وحسناته مكفِّرة لسيئاته ما اجتُنبت الكبائر.

بل إن العلم لأهله ولطلبة العلم سبيلٌ لقوة في دين الله جل وعلا، فالعالم أو طالب العلم يكون قويًّا في دينه لا يدركه الشيطان إلا ما شاء الله جل وعلا، طالب العلم قوي في إيمانه؛ لأنه علم الإيمان بحجته، قوي في عمله؛ لأنه يتعبد وهو يعلم كيف تعبد النبي محمد ﷺ، فهو حين يتعبد يتذكّر ما حُجته في عبادته فيرتبط قالبا وقالبا بسنة النبي ﷺ في صلاته تذكُّرا وفي عباداته وفي صلته وفي دعوته وفي جهاده وفي أمره بالمعروف ونهيه بالمنكر وفي علاقاته، كل ذلك عن علم وعن بصير، بخلاف من يعمل تلك الأشياء عن غير علم فإنه لا يرتبط بهدي النبي ﷺ ولا يتذكّر النبي ﷺ وهدي الصحابة في ذلك.

فطالب العلم موصولٌ بأئمة الدين، موصول بأئمة الإسلام أيضا بعد نبينا ﷺ وبعد الصحابة، فيعمل وهو يعلم أن هذه قال بها الإمام أحمد، قال بها الشافعي، قال بها سعيد بن جبير، قال بها الإمام مالك، قال بها ابن تيمية، وقال بها ابن حزم، قال بها فلان وفلان، فهو موصول بتذكّر هؤلاء العلماء الذين منّ الله جل وعلا عليهم بثناء الأمة عليهم، وهذا يعني الصّلة المستمرة بأهل العلم، والنبي ﷺ يقول: «**أنت مع من أحببت**».

العلم فضله عظيم في أن طالب العلم في تعلمه يؤجر لأنه صاحب نية صالحة، والنبي ﷺ يقول: «**إنّما الأعمال بالنيات وإنّما لامرئ ما نوىٰ**» فكل عبد له ما نوىٰ، وإذا صحت نيّة طالب العلم في العلم فإنه فيما يأتي من العلم بنية صحيحة يؤجر علىٰ ما يعمل من تفاصيله، فكل عمل يعمله بنية صالحة عبادة مستقلة عظيمة يؤجر عليها، كيف إذا كان هذا العلم أعظم ما يُطلب وهو كتاب الله جل وعلا، فلهذا إذا حفظ القرآن بنية صحيحة أو طلب علم التفسير أو طلب الفقه في الدين فإن أجره حينئذ يضاعف ويضاعف والله جل وعلا لا يضيع أجر من أحسن عمله.

صاحب العلم عمله الصالح يضاعَف له بحسب ما في قلبه من اليقين، الله جل وعلا يجزي عن الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة كما جاء في الحديث الصحيح، وهذا يعني أن الناس مختلفون في تضعيف أعمالهم، فمن العباد من يؤجر بالحسنة عشر حسنات، وهذا مِنّة من الله جل وعلا وكرم في جميع أهل الإيمان، «**من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها**»، كل مؤمن يأتي بحسنة يجعلها الله جل وعلا عشرة حسنات؛ لكن قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «**إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة**» قال أهل العلم: هذا التضعيف لأجل ما وقر في قلب العامل من العلم النافع الذي يتفاوت به الناس، والمقصود بالعلم النافع هنا هو سلامة التوحيد، سلامة القلب، سلامة العقيدة، سلامة الإخلاص، ونحو ذلك من اليقين والصلاح.

لهذا قال أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه قال: **ولمثقال ذرة من بر مع تقوىٰ ويقين أعظم وأكبر من أمثال الجبال عبادة من المغترين**.

(**ولمثقال ذرة من بر مع تقوىٰ**) يعني إخلاص لله جل وعلا وخوف منه ورغبة في لقائه، (**ويقين**) تيقّن وهو العلم الذي لا يدرك الإنسان معه شك ولا ريب أعظم وأكبر من أمثال الجبال عبادة من المغترين؛ لأن الله جل وعلا يضاعف العمل إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة، لهذا يختلف ثواب عبادة طالب العلم وعبادة غيره؛ لأن هذا يتعبد وهو يعلم كيف يتعبد وهو يعلم حجته، وهو يعلم مرجعه فيما تعبد وهو صحيح القلب وهو صحيح النية في ذلك صحيح العمل، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[العصر]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

من فضل العلم أنّ العلم يفتح للعبد أبواب الخيرات، وذلك أنّه يتعلّم سَعَة أنواع العبادات، فيتعلم الفرائض من الشعائر والنوافل، ويتعلم كيف يبيع وكيف يشتري، ويعلم كيف يصل رحمه، ويتعلم كيف يوصي، ويتعلم كيف يوقف، ويتعلم كيف يعاشر أهله، ويتعلم كيف يربي ولده، ويتعلم كيف يصحح قلبه وكيف يزهد في الدنيا وكيف يقبل علىٰ الآخرة وكيف يعظّم ربه ويتعلم ويتعلم ويتعلم، وهذا العلم بأنواعه يفتح له ولابد أبواب الخير بحسب ما قُدِّر له، ويتعلم فضل الدعوة إلىٰ الله جل وعلا، ويتعلم فضل تيسير الخير وإعانة المسلمين ومدّ يد العون لهم في أمر دينهم في أمر دنياهم، ويتعلم سلامة الصدر من الحسد والحقد والغل فيكون ذلك مؤثرا فيه، يتعلم الأمر بالمعروف فضله والنهي عن المنكر وفله ويسارع في ذلك وبحسب أصوله الشرعية وأحكامه المرعية، ويتعلم ويتعلم، فتكون أبواب الخير عنده دائما في باله لا يغفل عنها؛ لأنه يرددها ويذكرها ويراجعها فلا يغفل عن ذلك، فهو في يومه وفي ليلته في الحقيقة موصول بأنواع العبادات التي تتفتح له بنية صالحة إذا منَّ الله جل وعلا عليه في ذلك.

من فضل العلم أيضا أن العالم ومعلِّم الناس الخير وُصف بأنه مبارك بارك الله جل وعلا فيه وعليه، قال الله جل وعلا مخبرا عن قول عيسىٰ عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾[مريم]، قال أهل العلم في التفسير: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ يعني جعلني معلِّما للناس الخير آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر أينما كنت، ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا

دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾ يعني مع تلك الصفة التي هي بركة العلم فإنه متعبد لله جل وعلا غير غافل عن عبادته لربه جل جلاله.

وهٰذا هو البركة العظيمة التي هي بقاء الخير وثباته ونماؤه وزكاؤه؛ لأن البركة معناها الثبات والبقاء، جعله مباركا؛ يعني معلما للناس الخير آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر مبلغا رسالة ربه، وهذا كله يُثمر البركة من الله جل وعلا علىٰ عبده، وهذه هي التي يريدها العبد ويطلبها أن يرضىٰ الله جل وعلا عنه فيجعله ثابتا باقيا علىٰ ما يحبّ الله جل وعلا ويرضىٰ.

من قرأ سِيَر العلماء وجد أنّ أهل العلم في كل زمان ومكان هم المنافحون عن دين الله جل وعلا، وأنهم الثابتون حين تتنازع الناس الأهواء، وأنهم المستقيمون علىٰ السنة حين تدلهم البدع وتعقد الفتن ألويتها، ولهذا جاء في كلام الإمام أحمد في خُطبة كتابه «الرد علىٰ الزنادقة والجهمية»: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فَترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يهدون من ضلّ إلىٰ الهدىٰ، ويبصرونهم من العمىٰ، ويحيون بكتاب الله الموتىٰ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه.

ثم ذمّ المخالفين الذين كان العلم عندهم، علم بدعة وضلال، ووصفهم بأنّهم يعني بأن أهل العلم الصالحين بأنهم مخالفون لأهل البدع الذين عقدوا ألوية البدعة وهم مختلفون في الكتاب مخالفون في الكتاب. أو كما قال.

أهل العلم من قرأ التاريخ وجد أنهم الأصلب من أهل العبادة أو من أهل الاحتساب أو ما شابه ذلك؛ لأنهم عن بصر نافذ وقفوا، وببصر نافذ أيضا قاموا وعملوا، كما وُصف الصحابة رضوان الله عليهم بأنهم علىٰ علم وفقوا وأنهم ببصر نافذ كفّوا، فأهل العلم فيما يأتي من مدلهمات أو مما يأتي من شبه وفي كل زمان يكونون علىٰ علم يقفون وببصر نافذ وبصيرة يتفرّسون، ولهذا ضمّهم النبي ﷺ إلىٰ نفيه حين أمره الله جل وعلا في آخر سورة يوسف أن يقول: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[يوسف]، ولم يؤت الناس وتَضعف هذه الأمة إلا لما نزع أُناس إلىٰ الدين بجهل، كما فعل الخوارج، وكما فعل طائفة من أهل البدع الذين خالفوا السنة، نزعوا إلىٰ الخير ونزعة إلىٰ الصلاح؛ لكنهم نزعة إلىٰ ذلك علىٰ خلاف السنة وعلىٰ خلاف طريقة الصحابة رضوان الله عليهم، فصاروا مع ما هم عليه، صاروا مذمومين علىٰ كل لسان.

فإذن أهل العلم في التاريخ هم الأفضل، وهم الأنبه، وهم الأعلم، وهم الأكثر أثرا في هذه الأمة، لما جاءت فتنة خلق القرآن وقال الإمام أحمد فيها ما قال، وقصة ذلك تعرفونها، سُئل بعض الأئمة من أعلم الناس قال: أحمد. وهذا منه -لا أدري هل هو إسحاق أو نحوه- هذا منه ليشير إلىٰ أن ثباته في ذلك الموقف كان نتيجة لعلمه الغزير بتوحيد الله جل وعلا وبسنة النبي ﷺ.

أهل العلم في كل زمن هم القدوة التي يَقتدي الناس بهم، فمتىٰ جاء الطعن فيهم صار الطعن راجعا بشكل أو بآخر إلىٰ الدين الذي يحملونه؛ لأن الناس لابد لهم من قدوة يقتدون بها ومرجع يرجعون إليه. فإذا طعن في حملة العلم وفي أهل العلم وفي من ينشر العلم قام ذلك قدحا في من قدح في دين الله جل وعلا وفي العلم.

ولهذا لا يقال: إن العالم يَسْلَم من الزّلة أو يسلم من الغلط أو سواء في العلم أو في العمل أو في السلوك، ليس كذلك؛ بل لابد له من ذنوب تُرجىٰ مغفرتها من الله جل وعلا؛ لكن الشأن أن لا يبلّغ في دين الله جل وعلا ما هو مخالف لدين الله جل وعلا أما أن يقع منه الذنب فيقع.

ولهذا قال العلماء في قواعدهم العالم لا يُتبع بزلته ولا يتَّبع في زلته، لا يتبع في زلته تأتي تعنف تعنف علىٰ ما زلّ فيه، وصار منه من غلط سواء في العلم أو في العمل أو في السلوك، وأيضا لا يتّبع في زلته كصنيع الجهلة يقولون: فعلها فلان، لماذا أنت حالق حيتك؟ قال: فلان من المشايخ حالق لحيته هذا عالم، العالم يتبع بزلته ولا يتّبع أيضا في زلته؛ لأن العالم لابد أن يقع من غلط، لابد أن يقع منه زلة، ولابد أن تقع منته هفوة ولابد يقع منه مخالفة، لماذا؟ ليبقىٰ الكمال في هذه الأمة في محمد بن عبد الله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ، منه يؤخذ هذا الدين، سنته هي التي تتبع، أما لو وجد عالم لا غلط فيه البتة لاشتبه -كما قال بعض أهل العلم- لاشتبه العلماء بالأنبياء، وهذا غير واقع.

فيبقىٰ الناس حينئذ، وهذه حكمة من الله جل وعلا، يبقىٰ الناس حينئذ معلَّقين بالعلماء ومتعلقين بالعلماء لكن الأصل أنهم معلقون بسنة النبي ﷺ وبهدي السلف الصالح.

العلماء لم ينالوا العلم عن شهوة، ولم ينالوا العلم بتمني النفس؛ ولكن نالوا العلم بجد وفير وببذل عريض، جمعوا ليلهم ونهارهم في العلم، حتىٰ استوىٰ لهم سوق، قال بعض الصالحين في السلوك وهو ينطبق علىٰ العلم قال: **من كانت بداياته مُحرقة كانت نهاياته مشرقة**. يعني أن بداية طالب العلم -هو أراده في السلوك- ولكن نجعله في العلم وهو صحيح، من كان بدايته في العلم قوية متينة محرقة يعني من قوتها، في نهاياته تكون حاله مشرقة؛ يعني ترق شمسه فيضيء لنفسه ويضيء للآخرين.

فصفة أهل العلم لمن قرأ التراجم وقرأ سِيرهم أنهم جَدُّوا في العلم من الصغر وطلبوا ذلك ورحلوا فيه، ومن لم يكن له رحلة فلن يكون رُحَلة بمعنىٰ أنه من لم يتعب في العلم ويطلب ذلك فلن يطلب الناس منه العلم.

ولهذا أوصي بقراءة سير أهل العلم فإنه لا مشجِّع علىٰ العلم مثل مطالعة سِير العلماء، وكيف تعلموا وكيف صبروا علىٰ العلم، وكيف صبروا علىٰ التحصيل، وكيف صبروا علىٰ الحفظ وكيف وكيف.

وقد سئل البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ صاحب الصحيح محمد بن إسماعيل: ما دواء الحفظ في العلم؟ كان البخاري يحفظ مئات الآلاف من الأحاديث، فقيل له: ما دواء الحفظ؟ كان شائعا أن هناك أدوية للحفظ ظنوا أن البخاري يتعاطىٰ ذلك، كما كان بعضهم يتعاطىٰ بعض المأكولات أو بعض اللبان أو بعض إلىٰ آخره ليقوىٰ الحفظ.

فقال من تجربته: لم أجد للحفظ أنفع من نَهْمَة الرجل وكثر النظر. أمران:

نهمة الرجل: يعني نهمة طالب العلم، وهكذا كان طالب العلم النهمة والرغبة والحرص الشديد، بحيث يجتمع في العلم ليلك ونهارك وتفكيرك.

وإدمان النظر: أيضا كثرة المطالعة، لا تغفل علىٰ العلم؛ لأن العلم ضيف شريف عليك، إن أكرمته بقي عندك وإن تركته تركك ورحل، وهذا مجرب، فبقدر ما تقبل علىٰ العلم يقبل عليك، وبقدر ما تغفل عنه يغفل عنك ويذهب.

الحفظ أساس في العلم كان العلماء عليه، ولا تلتفت لمن يزهدك في الحفظ، لأن الحفظ يبقىٰ، وأما الفهم فهو يأتي ويذهب ولكن إذا ركز الحفظ جاء الفهم بعده فبقي الحفظ والفهم ما شاء الله.

من صفات أهل العلم أن أهل العلم لما حفظوا وتعلموا كانوا علىٰ طريق واضح وهو طريق من سلك في العلم والتعلم، العلم هناك مدارس كثيرة فيه؛ لكن لم ينجح فيها بالتجربة وبالنظر وبالميدان إلا من سلك فيها طريق الأولين؛ لأن الله جل وعلا قال لنبيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[القيامة]. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ يعني أن يقرأ كما قرئ عليك، اتبع قرآنه علىٰ نحو ما قرئ عليك هذا معناه الحفظ، قال ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ ليكون الفهم والبيان بعد الحفظ والاتّباع في ذلك.

وقال أيضا جل وعلا لنبيه: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[طه:١١٤]؛ يعني اسمع، فإذا علمت كيف قرئ وكيف تُلي بعد ذلك اتَّبع هذا ولا تعجل، وهذا واضح في سير أهل العلم لأنهم لما سلكوا طريق الأولين نجحوا في ذلك.

لهذا لابد أن تسلك في العلم الطرق الموضحة لكم في مثل هذه الدورات التي تستفيد منها كثيرا في شرح المتون وفي بيان معاني كلام أهل العلم؛ لكن لا يُكتفىٰ بذلك، لابد أن تكون مع العلم ليلا ونهارا.

ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ قال: نظرتُ في ثبت خزانة المدرسة النّظامية -المدرسة النظامية مدرسة يعني شبه جامعة، في القرن الخامس والسادس الهجري واستمرت في العراق، وكان لها مكتبة بناها النظام الملك حد الولاة في ذلك الزمن- قال: نظرت في ثبتها فإذا فيه يعني ما يقارب ستة آلاف كتاب، فإذا فيه ستة ألاف كتاب. قال ولو قلت لي: كم قرأت في الصغر؟ لقلت علىٰ ما يزيد عن عشرين ألف مجلد.

ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كان يكتب في اليوم الواحد كراسة، ويبلغ ما يكتب في السنة إما نسخا أو تأليفا أكثر من مائة مجلد، في السنة الواحدة.

وحدّث عن نفسه فقال كنت من نهمي في العلم أني إذا دخلت بيت الخلاء جعلت ولدي يقرأ لي خارجا ليسمع فلا يفوته، وإذا زارني بعض الثقلاء اشتغلت أثناء وجوده عندي بتجهيز الورق وبري الأقلام للكتابة، همة عالية.

الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ كان يبحث مرة في مسألة من المسائل، فأتته زوجته، يصح أن تقول زوجته والأصل فأتته زوجه -زوجه كما في القرآن وزوجته في السنة «**زوجة أبيكم في الدنيا**»- المقصود أتته زوجته وقد تعطرت وتطيبت فوقفت علىٰ رأسه قال فرفعت رأسي إليها ثم رجعت إلىٰ كتابي. إلىٰ آخر القصة. المقصود منه أنه لم يكن في قلبه في هذا الوقت إلا همّ العلم، همّ العلم وهمّ طلب العلم.

الحافظ ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ توفي سنة عشر وثلاثمائة صاحب تفسير وصاحب التاريخ ونحو ذلك، قال لطلابه يوما: هل تنشطون لتاريخ العالم؛ يعني من خلق الله الدنيا إلىٰ وقتنا الحاضر،

قالوا: قدر كم؟ عرفوا أن المسالة كبير، قال قدر أربعين ألف صفحة يعني موسوعة الآن أو أكبر، قال: لا، هذا مما تفنىٰ فيه الأعمار. قال: الله المستعان ذهبت الهمم، فاختصر لهم التاريخ الموجود الآن في أحد عشر مجلدا. ثم لما فرغ منه. قال: لهم هل تنشطون لتفسير كتاب الله. قال: قدر كم؟ قال: قدر أربعين ألف ورقة نفس الكلمة، وكان قريب التسعين من العمر، أو في أول الثمانين. قالوا: هذا مما تفنىٰ فيه الأعمار. قال: الله المستعان ذهبت الهمم فاختصره لهم في التفسير الموجود الذي هو الأكبر التفاسير الآن. ولذلك يسمىٰ إمام المفسرين.

ابن جرير الطبري لم يتزوج، وكان كل يوم يكتب من تأليفه أربعين صفحة؛ أربعين ورقة، كل يوم يكتب من تأليفه أربعين ورقة، منشغل؟ ليس بالمنشغل إلا في العلم ولهذا نفع الله جل وعلا الأمة في وقته وفيما بعده به.

فنحن إلىٰ الآن عيال علىٰ ابن جرير فيما كتب وألّف.

ومن أخبار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في همته في طلب العلم ما يقوي طالب العلم في ذلك: أتاه رجل وسأله عن مسألة في الفرائض، وهو في أول الطلب كان في الشام، فاستنكف أن يقول: لا أعلم، والفرائض مما يتعلمه طلاب العلم عادة في أوائل ما يتعلمون، فقال: إن عليّ اليوم أَلِيَّة -يعني حلفا أن لا أتكلم في الفرائض- فإذا أتيتني في الغد أجيبك عن مسألة. قال: فدرست الفرائض في ذلك اليوم. والفرائض علم يقال عنه أنه علم أسبوع يعني من أراده في أسبوع أخذ جملة منه حسنة. قال: لما أتىٰ الغد أتاني..

لكن هذه الهمة همة قوية، رحل من رحل، وأتىٰ من أتىٰ ومن صفاتهم العظيمة في طلبهم للعلم أنّ العلم معهم كان ميدان خشية لا ميدان تفاخر، ولهذا نذكر بعض صفات طلاب العلم التي ينبغي لنا أن نتحلّىٰ بها قدر المستطاع، فإذا قصرنا استغفرنا ورجعنا إلىٰ الصواب.

من أهم صفات أهل العلم وطلاب العلم أن يخلصوا النية لله جل وعلا، وأن لا يطلبوا العلم لأجل أن يقال عالم أو أن يقال طالب علم، والنية في العلم أن يطلبه لله جل وعلا لكي يصحح عبادته وعمله مع الله جل وعلا، وله أن يزيد علىٰ ذلك إن آنس من نفسه رشدا أن نوي أن ينفع إخوانه المؤمنين وينشر دين الله جل وعلا، فهذه نية صالحة يؤجر عليها، فإذا نوىٰ رفع الجهل عن نفسه وعن غيره، كانت نيته صالحة لأن الجهل في هذا المقام مذموم.

من صفاتهم أنهم يحرصون علىٰ تعلّم ما به يُخلصون لله جل وعلا، وهو توحيد الله سبحانه والعقيدة الصحيحة؛ لأن أعظم ما يُطلب الإيمان، لهذا قال جل وعلا: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [العصر:٣] ﴿ءَامَنُواْ ﴾ هنا قال أهل العلم: بدأ بالعلم؛ لأن الإيمان هو العلم، وإذا كان الإيمان هو العلم فمعنىٰ ذلك أن أفضل العلم الإيمان، والإيمان هو الذي فسره العلم بالتوحيد وبالعقيدة الصحيحة.

وهكذا كان العلم من أهل النية وأن أتباع السلف الصالح يحّررون هذا المقام؛ لأنه لا يحسن أن لا تفهمه وأن تجيده وأن تجيد مسائل أخرىٰ هي دونه في القدر، فإذا جاء مشكل في التوحيد أو العقيدة لا تحسن الكلام عليها أو تعرف وجهه وهو حق الله جل وعلا ثم تعرف ما دون ذلك هذا فيه قصور.

ثم بعد ذلك يتعلمون ما يصح به دينه وهو تعلم العبادة والحلال والحرام، بمعنىٰ ذلك أن يكون عندهم تدرج بحسب فضل ذلك وما يريده الله جل وعلا من العبد.

أما أن يكون متوسعا في السيرة وهو لا يعلم توحيد الله جل وعلا ولا السنة ولا يعلم ما يتعبد ربه في صلاته وزكاته وصيامه وحجه والأمور المهمة في ذلك وهذا قصور منه.

من صفات أهل العلم أنهم متراحمون فيما بينهم، يسعىٰ بعضهم في شأن بعض؛ لأنهم علىٰ منهج واحد وعقيدة صحيحة فيما اتبعوا فيه السلف الصالح وكانوا في ذلك، وبعضهم يحب بعضا، ولهذا ذم من ذم من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ذموا العلماء الذين يحسد بعضهم بعضا؛ لأن هذا خلاف مقتضىٰ العلم، مقتضىٰ العلم أن يسلم الصدر من الحقد والغل والحسد، وأن تفرح أن يقوم بدين الله جل وعلا من شاء الله من عباده، وأن تفرح أن تكون خليا من الأمر أو خليا من الواجب، وأن يقوم غيرك به، لهذا الصحابة تدافعوا الفتيا وتدافعوا الإمارة وتدافعوا المسؤوليات؛ لأنهم أرادوا السلامة، فإذا تعينت عليهم سعوا فيها واجتهدوا وسألوا الله جل وعلا الإعانة والتوفيق.

فإذن طلبة العلم متراحمون فيما بينهم، متحابون فيما بينهم، لا يحسد بعضهم بعضا، ربنا لا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم، فإذا غلط أو زل أو أخطأ فإنه يسعىٰ في نصيحته بالطريقة الشرعية التي تحبب له الخير ولا تجعل النفوس فيها نفرة، وهذا مما يساعد علىٰ بث الخير وتقليل الشر، ويساعد علىٰ أن يكون أهل العلم وطلبة العلم أن يكونوا شيئا واحدا؛ لأنه بذلك يقوىٰ الخير ويضمحل ويضعف الشر.

من صفات طلبة العلم وأهل العلم أنهم سليمون من كل اسم سوىٰ اسم الإسلام والسنة، ولهذا ذمّ جمع من العلماء العالم الذي ينتصر لشيخه مهما كان، أو ينتصر لمذهبه مهما كان، أو أن يكون منتصرا لحزب أو جماعة أو فئة؛ لأن هذا ليس من مقتضىٰ العلم، مقتضىٰ العلم أن تُعين الخلق وتعين أهل الدين علىٰ الإسلام الذي هو سنة النبي ﷺ أن تعينهم عليه وأن تحببه لهم وأن تغلق عنهم ضده، هذا مقتضىٰ العلم النافع.

وأما إذا كان العلم فيه نصرة لمذهب أو طائفة أو حزب أو جماعة أو نحو ذلك، فهذا خلاف المقصود من العلم وخلاف النية الصالحة، فهذا مذموم فيه.

ولهذا قال بعض أهل العلم في هذا المقام -وهو الشيخ بكر أبو زيد عافاه الله ومنّ عليه- قال في كتابه «حلية طالب العلم» أو نحوه قال: من صفات طلاب العلم أن تكون يا طالب العالم ولآجا في الجماعات والأحزاب. وذلك أنها لابد أن تحرف منهج طالب العلم عن حقيقة العلم إلىٰ غيره، وأما إذا سلم من ذلك فإنه يرجىٰ له السلامة في المنهج الذي يقتفيه، ولهذا قال أهل جل وعلا لنبيه: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾[يوسف:١٠٨]، قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في مسائل كتاب التوحيد في قوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ التنبيه علىٰ الإخلاص. بخلاف من يدعو إلىٰ شيخه أو إلىٰ طريقته.

من صفات أهل العلم أنهم يحرصون علىٰ نفع الناس في دينهم وأيضا في دنياهم ما أمكنهم ذلك، وأنهم دعاة إلىٰ الخير آمرون المعروف ناهون عن المنكر، لأن مقتضىٰ العلم النافع الصحيح هو حمل هذه الرسالة ووراثة النبي محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، الأنبياء كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ: «**لم يورثوا دينارا ولا دهما فإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحض وافر**» والنبي ﷺ في مهماته المختلفة ورثها عنه أهل العلم في مهمة الفتيا والإمامة وفي نفع الناس والعطف والرحمة والصلة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجميع أبواب الخير، أهل العلم هم أولىٰ بها من غيرهم، والناس في ذلك تبع لأهل العلم في ذلك؛ لأنهم يعلمون حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله في هذه المسائل العظيمة.

إذن فالعلم يقضي بحقه علىٰ طالب العلم أن يكون داعية إلىٰ الخير، ليس معنىٰ داعية إلىٰ الخير أن يكون أمامه مكرفونات ويحاضر أو خطيب جمعة، لا، داعية إلىٰ الخير بحسب ما عنده من العلم في نفسه في أهل بيته وفيمن يكون من الجهال لديه أو يسافر إليهم أو نحو ذلك، يكون في نفسه أن يعلّم لكن علىٰ طالب علم وعنده علم ولا يحرص علىٰ نفع الناس، هذا فيه نظر وليس هذا من الصفات المحمودة؛ بل من الصفات المحمودة أن يكون ساعيا في الخير في أمر المسلمين في دينهم وفي دنياهم وفي الأمر بالمعروف وفي النهي عن المنكر ومن جميع ما فيه رفعة لدين الله جل وعلا.

من صفات أهل العلم وطلبة العلم أنهم سليمو اللسان والقلب من كل ما لا يرضي الله جل وعلا.

أما اللسان فلسانهم طيب، وصفة ألسنتهم أنها طيبة، طالب علم يغتاب! نمام! يقع في هذا وفي هذا! طالب علم تجد لسانه لا يراعي فيه الله جل وعلا! إذا خاصم فجر! خاطب بخطاب سيئ! هذا من ليس من صفة أهل العلم المحمودة وليس من مقتضىٰ العلم النافع، ولهذا قال الله جل وعلا لنبيه: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾[الإسراء:٥٣]، هنا يأتي الصبر، هل يتوقع طالب العلم أو العالم أن لا يأتي أن لا يسمع شيئا يكرهه؟ لابد أن يسمع هذه الحياة، النبي ﷺ سمع ما يكره وأوذي، هل يريد أن يقال له دائما أنت كذا وكذا؟ ليس صحيحا لابد أن ينقسم الناس، ولابد أن يواجه ولابد أن يقول جاهل عليه أنت دينك هذا فيه كذا لابد أن يصبر، وأن يكون لسانه عفيفا، طيب اللسان، طيب الكلام، طيب القول، ولا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث.

إذن فطالب العلم من صفته أن يكون لسانه أحسن ما يكون، في ألفاظه، وفي تعاملاته وفي صبره، وقد كان جمع فإذا أوذوا عُرف ذلك في وجوههم؛ لكن لم يؤثر ذلك أن يكونوا يستطيلون علىٰ الناس في أعراضهم بألسنتهم، الناس لابد أن يكون مصيب، ومنهم مخطئ، ومنهم علىٰ صواب، ومنهم من ليس علىٰ الصواب، ولكن يصبر عليهم ويعلمون ويرشدون، ويكون اللسان طيبا عفيفا.

كذلك القلب، طالب العلم يجاهد نفسه أن يكون قلبه سليما، سليما من الغل والحقد والحسد علىٰ الماضين وعلىٰ الحاضرين، إلا ما كان من ذلك فيما أُذن به شرعا في بعض المسائل؛ لكن أن يكون في قلبه الأمور المنكرة وكبائر القلوب، نعوذ بالله من غش وغل المؤمنين.

من صفات طلاب العلم أيضا أن طالب العلم صاحب عمل صالح، وصاحب خوف من الله جل وعلا وخشية؛ لأن الحقيقة هو العلم هو الخشية إذا لم يثمر العلم خشية لله جل وعلا فهو علم فيه قصور

أو غير نافع أو لم يكتمل نفعه، لهذا قال جل وعلا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[فاطر:٢٨]؛ يعني أن أهل العلم هم أحق الناس بخشية الله جل وعلا لما يعلمون من صفة الله جل وعلا في ربوبيته وأسمائه وصفاته، ولما يعلمون مما أعدّه الله جل وعلا للمؤمن وللعاصي وللمنافق وهكذا، أهل العلم ينظرون دائما في أعمالهم بنظرين:

نظر رحمة.

والنظر الثاني نظر خوف ووجل.

أما نظر الرحمة فهو نظرهم إلىٰ الخلق وإلىٰ أهل الإسلام بخاصة، ينظر إليهم ويرحمهم، يرحم العاصي حين عصىٰ؛ لأنه ما عصىٰ إلا بتسلّط العدو عليه وهو إبليس، ويرحم العبد الذي لم يفقه دين الله جل وعلا، ويرحم المحتاج من لم يعمل لدين الله، ويرحم من خالف الصواب ويرحم من خالف المنهج، ويرحم ويرحم لأجل أن يهديه إلىٰ منهج السلف الصالح وسنة النبي ﷺ.

ومن جهة أخرىٰ في قلبه الخشية والخوف من الله جل وعلا.

فيكون معه نظران:

النظر الأول: نظر خوف من الله ومن الحساب، ومما يقابل به ربه جل وعلا.

والنظر الآخر: الرحمة.

فيحمله الخوف علىٰ العمل وعلىٰ الجد، وتحمله الرحمة علىٰ ألا يكون غليظًا مع المؤمنين.

ومن صفات أهل العلم وطلبة العلم أنهم أهل صبر في طلب العلم والتحصيل فيه وأهل استمرار علىٰ ذلك، فالعلم لا يُطلب في يوم وليلة، وليس مدة طلب العلم سنة ودورة أو دورتين أو عشرة أو عشرين، العلم معك منذ أن تبدأ إلىٰ أن تموت، ولهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: اطلبوا العلم من المهد إلىٰ اللحد. لأنه لا يشبع منه.

وقال أيضا: مع المحبرة إلىٰ المقبرة. يعني الواحد لابد أن يكون دائما معه كتاب ومعه ورق.

معه همة وصبر علىٰ لذلك لا يفارقه العلم والكتاب والحفظ والمدارسة هما كان؛ لأنه إن فارق ذلك فإنه يضعف علمه أو يفقده بحسب ذلك.

من صفات طلبة العلم أنهم ساعون في الخير بعيدون عن الشر حريصون علىٰ ما فيه خير أنفسهم وخير الناس بعيدون عما فيه شر أنفسهم وشر الناس، لهذا وصف أهل العلم بأنهم الجماعة، الجماعة التي جاءت في الحديث أنّ النبي ﷺ لما ذكر الفرق «**كلها في النار إلا واحدة**» قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «**الجماعة**».

قيل للإمام أحمد: من الجماعة؟ قال: هم أهل الحديث. وفي رواية قال: هم أهل العلم. قال الترمذي في جامعه: هم أهل العلم.

فأهل العلم من أهم صفاهم أنهم ساعون في اجتماع الناس؛ الاجتماع علىٰ الدين الحق، والاجتماع علىٰ ولاة أمرهم وعدم إحداث الفتن كبيرها وصغيرها، وهذا صفة أئمة أهل السنة وأتباع السلف الصالح منذ الزمن الأول إلىٰ زمننا الحاضر إلىٰ يرث الأرض ومن عليها.

ولهذا وصف أهل العلم بأنهم الجماعة بأهم هم الحريصون علىٰ الجماعة بنوعيها جماعة الدين وجماعة الأبدان.

ومن صفاتهم أيضا أنهم متعاونون علىٰ البر والتقوىٰ؛ لأن تحقيق الخير وتحقيق الدين لا يكون بعمل فرد ولا بعمل جهة، وإنما يكون بالتعاون كل في مجاله وكل في جهته وأهل العلم هم أحرىٰ الناس وطلبة العلم بأن يرعوا ذلك وأن يتعاونوا علىٰ البر والتقوىٰ وأن يحذروا علىٰ التعاون علىٰ الإثم والعدوان.

وصفات طلبة العلم كثيرة متنوعة لعلكم تتابعون ذلك بقراءتها فيما كُتب في صفات أهل العلم.

نسأل الله جل وعلا أن يجعلنا وإياكم ممن منّ عليه بحمل العلم وجعله ثابتا علىٰ ذلك، ومنّ عليه بالصفات الحسنة لأهل العلم.

ونسأله جل وعلا أن يغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، وأن يجعل عاقبتنا إلىٰ خير.

كما أسأله جل جلاله أن يوفق ولاة أمرنا إلىٰ ما فيه رضاه وأن يجعلنا وإياهم من المتعاونين علىٰ البر والتقوىٰ، وأن يوفق أهل العلم منا إلىٰ ما فيه عز الإسلام وقوة المسلمين ونشر العلم النافع وازدياد الخير واضمحلال الشر.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

نجيب علىٰ بعض الأسئلة.

سؤال (١): أول سؤاله فيه استدراك لكلمة ذكرتها قال: قلت ضمن كلامك: إن الأنبياء أعلم أهل زمانهم وهٰذا لا شك فيه، ولٰكِن في عهد موسىٰ أليس الخضر عنده علم أكثر منه؟ فيقال: إن أعلم زمان موسىٰ الخضر، أم الخضر نفسه نبي؟.. إلخ

الجواب: لما ذكرتُ الكلمة جاء في الذهن الخضر، والخضر مع موسىٰ عليه السلام كان أعلم من موسىٰ في مسائل، وأما من جهة علم النبوة والعلم بالله جل وعلا وعلم الرسالة فموسىٰ عليه السلام كان أعلم؛ لٰكِن بالعلم العام الذي قاله موسىٰ كان يذكر للناس من كل شيء خبرًا، فسأله سائل فقال له: يا موسىٰ: من أعلم الناس؟ فقال: أنا.

وهٰذا تفضيل مطلق في كل نواحي العلم بما يدخل فيها بعض أمور الغيب.

فقال له الله جل وعلا: يا موسىٰ إيتِ عبدنا خضرا فإنه أعلم منك، حصلت القصة المعروفة، وموسىٰ عليه السلام لم يصبر مع الخضر ففارقه الكليم كليم قلب، ونبينا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قال: «وددنا لو أن موسىٰ صبر» يعني لنرىٰ ما يعمل الخضر زيادة علىٰ ما ذكر.

فالمقصود أن الأنبياء من جهة النبوة ومن جهة الرسالة؛ الرسول هو أعلم أهل زمنه، أو أعلم من أرسل إليهم إذا لم يكن في زمنه نبي أو مرسل آخر.

قصة موسىٰ عليه السلام مع الخصر فيها فوائد كثيرة في طلب العلم، وفي الصبر علىٰ المعلم، وفي الأناة، وفي عدم المعارضة لأهل العلم، فيها فوائد كثيرة جدا في هٰذا الباب.

سؤال (٢): هل الأصح أو الأفضل لطالب أن يلازم شيخا واحدا يأخذ عنه كافة العلوم، خاصة في بداية الطلب، أم ينوع في الأخذ، وهل يصح ذلك عند عالم قد مات وبقيت آثاره بحيث يلزمها طالب العلم.

الجواب: العلم واسع، فيأخذ العلم عمن يحسنه، العلم واسع فنون منه علوم الآلة مختلفة، وعلوم الآلة علوم، ومنها العلوم الأصلية الرئيسة، هٰذه أيضا علوم وفنون.

فيأخذ العلم ممن يرىٰ أنه ينفعه في ذلك؛ لٰكِن كثرة الأشياخ قد تكون مشغلة عن الطلب وعن الملازمة، فيرىٰ ما هو الأنفع له، إذا وجد عالما قويا في العلوم يُشبع نعمته فيما يطلب، فيلازمه وفي ذلك الخير.

لٰكِن إذا كان عنده نهمة ويجد أن هٰذا العلم أو المعلم أو طالب العلم يكون جيِّدًا في الحديث لٰكِن ليس جيدا في الفقه.

يكون قويا في شرح العقيدة والتوحيد ولا يكون قويا في علم آخر، أو يدرس هٰذا ولا يدرس غيره، فإنه ينوع بحسب قوته؛ لٰكِن ينتبه لنفسه أن لا تكون كثرة المشايخ معطلة له أو باعثة له علىٰ الفتور؛ لأنه أحيانا أن يرهق طالب العلم نفسه بأكثر من نهمته وقدرته وما يحس من نفسه هٰذا يشغله، وربما يصيبه بالفتور في حين ما؛ لٰكِن إذا أخذ العلم شيئا فشيئا بحسب قدرته ونهمته فإنه يحصِّل علىٰ مرِّ الزمن.

سؤال (٣): تعلمون ما للعلم من أهمية في رفع الجهل عن الناس وعن المرأة بخصوصها، فما هي الوسائل المفيدة لرفع الجهل عن المرأة والزوجة خصوصًا؟

الجواب: المرأة مخاطبة بالعلم كما يخاطب الرجل، النساء شقائق الرجال، ومطلوب منها أن تتعلم، مطلوب منها أن تفقه في دين الله؛ لٰكِن النساء يختلفن كما يختلف أيضا الرجال، بحسب فراغها وشغلها أو بحسب استعدادها وقوتها وذكائها ونحو ذلك مما يكون معها.

فالعلم هي مخاطبة به، فالمرأة إذا أحست من نفسها رشدا، وأرادت أنها تُقبل علىٰ العلم فهناك ولله الحمد الآن كثير من النساء طالبات علم، يناقشن ويسألن، وبعضهن يؤلف ويكتب بقدر ما أعطاهن الله جل وعلا، وهٰذا أمر حسن؛ لأن من الصحابيات من كن فقيهات، عدد منهن أم الدرداء زوج أبي الدرداء كانت فقيهة عالمة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كانت المرجع للصحابة في السنة وفي مسائل من الفقه واستدركت علىٰ الصحابة مسائل كثيرة.

من النساء من كانت شيخة أعني بهذا الكلمة شيخة كما قال عدد من أهل العلم في إجازاتهم: حدثتنا الشيخة الصالحة فاطمة كان يقرأ عليها الكتاب طبعا من وراء حجاب لأجل لأن عندها إجازات عالية وهي ربما أصلحت الغلط لبعض طلاب العلم، وهكذا كانت النساء.

العناية بهن في العلم والدعوة من أهم المهمات، أن يقوم العلم والدعوة ونشر الخير علىٰ الرجال فقط هٰذا غير صحيح وليس من دين الله؛ بل المرأة مطلوب منها أن تسعىٰ في العلم، وأن الزوج يعينها علىٰ ذلك، يعينها أخوها يعينها قريبها، محرمها علىٰ ذلك، ويؤثر لها إذا كانت عندها استعدادات فطرية لهٰذا، يعينها علىٰ الخير، يعينها علىٰ ما تحصِّل به العلم.

وهٰذا مهم اليوم؛ لأن أكثر ما ترىٰ اليوم من هجوم ومن أنواع من الفساد والمنكرات أكثر من يواجهها وتوجه إلىٰ المرأة.

فإذا كانت الدعوة والخير في الرجال وضعُفت في النساء معنىٰ ذلك أنها سيضعف الخير شيئا فشيئا وستقوم البيوت علىٰ شفا جرف هار.

هٰذا لا ينبغي؛ بل لا يجوز أن يكون بحال.

ومن وسائل صده أن يسعىٰ النساء في طلب العلم وأن يحرصن علىٰ ذلك كما كان الأوائل يحرصن علىٰ ذلك.

الإمام شيخ الإسلام محمد ن عبد الوهاب رحمه الله كانت له ابنتان سارة وفاطمة وكلتاهما طالبة علم متمكن، سارة بقيت في الدرعية، وفاطمة ذهبت إلىٰ جهة الإمارات، الآن كانت في القديمة تسمىٰ عمان أو ساحل عمان لقربها منه، ودرّست هناك ودرّست الأخرىٰ أيضا في الدرعية وبقيت لهن كتب أيضا موقوفة وحصلنا كتبا كثيرة.

وهٰذا كثير في تاريخ الإسلام النساء مهم أن يطلبن العلم وأن يحرصن علىٰ ذلك لما في هٰذا من نشر للخير وتعليم للصغار وللكبار .

سؤال (٤): ما رأيكم في متن حديث لطالب هل هو «بلوغ المرام» أو «عمدة الأحكام»؟

الجواب: يبدأ بـ«عمدة الأحكام» لأنه أخصر وكله من «الصحيحين» مما اتفق عليه الشيخان أو جاء في أحدهما، وهو قليل حوالي ٥٠٠ حديث، أما «بلوغ المرام» فهو نحو ١٦٠٠ حديث كثير فيبدأ بـ«عمدة الأحكام» فإذا أنهاه ذهب إلىٰ «البلوغ».

سؤال (٥): بعض من ينتسب إلىٰ أهل السنة في هٰذا العصر يقول: إن جنس العمل ليس ركنا في الإيمان وإن كان جزءا منه؛ بل هو وجب فيه فقط بمعنىٰ أن الإنسان إذا اعتقد بقلبه وأقر بلسانه؛ ولكنه لم يعمل عملا قط، فإنه مؤمن إلا أنه ناقص الإيمان.. إلىٰ آخره.

الجواب: الذي أجمع عليه أهل السنة والجماعة وذكروه في معتقداتهم وفي كتب العقيدة لهم مخالفين بذلك أهل الإرجاء بطوائفهم المختلفة أن الإيمان قول وعمل، وأنه اعتقاد بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان.

وأن العمل داخل في الماهية، وإذا دخل في الماهية فهو ركن فيه بإجماع أهل السنة.

والعمل الذي هو ركن في الإيمان هو جنس العمل بالفرائض وترك المحرمات، العمل بالفرائض وترك المحرمات، هٰذا هو الركن؛ بمعنىٰ أنه يعمل بالفرض ويجتنب المحرم هٰذا داخل في حقيقة الإيمان، وليس كل عمل ركنًا في الإيمان.

وأيضا ليست كل الأعمال ركنا في الإيمان، هٰذا معتقد الخوارج، أنه أي عمل فرض لا يعمل به أو أي محرم يرتكبه فإنه يقدح في أصل إيمانه فيكفر بذلك؛ لكنه إذا جاء بعمل مما أمر الله جل وعلا به وانتهىٰ عن محرم مما حرمه الله جل وعلا ونهىٰ عنه، فإنه يدخل في عقد الإيمان، فيصح معه هٰذا الإيمان

الذي اجتمع فيه اعتقاد القلب وقول اللسان والعمل الذي هو العمل بالفرائض واجتناب المحرمات، هٰذا هو القدر المجمع عليه بين أهل السنة والجماعة.

أما من جعل العمل جزء من الإيمان وليس ركنا فيه، هٰذا لا يجوز جزء من الشيء داخل في ماهيته إلا وهو ركن، هٰذه المسألة اه بحث مبسوط في كتب العقائد كما هو معروف.

الآن أركان الإيمان ستة ما فيه أحد يقول: أنها ليست أركانا من الإيمان، ولٰكِن ليس فيه حديث ولا في القرآن ولا في السنة ولا كلمة عن أحد من الصحابة يقول فيها: أركان الإيمان الستة، أو أركان الإيمان ستة، لا يوجد ركن في كلام النبي ﷺ أركان الإيمان أو هٰذا من أركان الإيمان.

لكن العلماء بالإجماع قالوا: هٰذه الستة هي أركان الإيمان، كما أن أركان الإسلام خمسة، مع أنه لم يأت في السنة أركان الإسلام خمسة هي كذا إنما فيه «بني الإسلام علىٰ خمس» أو أنه سئل ما الإسلام فقال: «أن تشهد.. ».

لهٰذا نقول: العلماء جعلوا الشيء ركنا إذا كان داخلا في الماهية لا يقوم إلا به من جهة النص أو من جهة الحقيقة.

فجعلوا أركان الإيمان ستة لماذا؟ لأن النبي ﷺ سئل: ما الإيمان؟ فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره».

وهٰذا الجواب جواب عن الماهية التي سئل عنها بـ:(ما)؛ ما الإيمان؟

إذن الإيمان الذي أجيب عن حقيقته وماهيته هٰذه الستة فهي أركان.

قال: ما الإسلام؟ قال كذا فهي أركان.

نقول الآن مثلا: أركان الصلاة هل فيه دليل يقول: أركان الصلاة كذا؟ ليس فيه دليل يقول: أركان الصلاة كذا.

أركان البيع، أركان النكاح، هل فيه دليل يقول: أركان النكاح؟ لا.

كلمة ركن هٰذه مصطلح جعلها العلماء في ما دل الدليل علىٰ أنه داخلٌ في الماهية.

والعمل كذلك دل الدليل علىٰ أنه داخل في الماهية في قوله جل وعلا: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾[البقرة:١٤٣]، والمقصود عملكم وهو الصلاة.

فلما عبر عن العمل بالإيمان دل علىٰ أنه داخل في حقيقته وماهيته، وأنه ركن.

النبي ﷺ جاءه وفد عبد القيس فسألوه، فقالوا له: ما تأمرنا؟ فقال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كما في الصحيحين: «آمركم بالإيمان بالله وحده»، قالوا: وما الإيمان بالله وحده؟ قال: «أن تشهدوا أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وأن تقيموا الصلاة، وأن تؤدوا الزكاة، وأن تعطوا الخمس من المغنم».

قال أهل العلم: ذكر الخمس من المغنم لأنه عمل فيدل علىٰ أن العمل كان جوابا عن الماهية، فصار ركنا من أركان الإيمان.

هٰذا القدر متفق عليه بين أهل السنة فيما سطروه، ولا خلاف بينهم، في أن الإيمان قول وعمل ونية ويزيد وينقص، وأنه اعتقاد وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، وأنه ليس كل عمل ركنا من أركان

الإيمان؛ بل العمل من حيث هو هو الركن لٰكِن ليس كل فرد فرد من الأعمال الصالحة يدخل ركنا من أركان الإيمان، لأن هٰذا من معتقد الخوارج.

فخالف بذلك أهلُ السنة أهل البدع من المرجئة والخوارج.

الخوارج قالوا: كل عمل ركن، فمن ترك أي عمل كفر.

والمرجئة قالوا: ليس ثم عمل أصلا داخل في حقيقة الإيمان.

وهٰذا وهٰذا خلاف منهج أهل السنة، والحمد لله أن الأمر ظاهر بين من جهة الدليل، ومن جهة المقتضىٰ.

لٰكِن هنا تنبيه وهو أن إحداث مصطلحات في مسائل العقيدة وخاصة مسائل الإيمان لابد أن يفضي إلىٰ خلاف.

لماذا؟

لأن المصطلح له عدة أوجه في التفسير، يفسره من أحدث المصطلح أو من استعمله بتفسير، ويفسره الآخرون أيضا بتفسير.

فإذا صار النزاع وقع الخلاف في أصل المسألة.

وهٰذا مما يجب الحذر منه.

مسائل الاعتقاد والإيمان نتبع فيها ولا نبتدع، لا نحدث فيها شيئا، لا مصطلحا ولا لفظا؛ لأن أصل الخلاف والفرقة التي وقعت في الأمة في القرن الأول كانت بسبب هٰذه المصطلحات ومسائل الإيمان والأسماء والأحكام.

فإذا جاءنا من جاء بمصطلحات جديدة، فإنه وإن كان قد يفسِّرها بتفسير صحيح؛ لكنه يوقع الفرقة ويوقع الخلاف؛ لأنه لن يفهم منها ذلك.

لهٰذا أحض الجميع أن لا يُجتهد في مسائل الاعتقاد، مسائل العقيدة والمنهج منهج السلف الصالح بين واضح فيها مئات الكتب، فنتبع فيها ولا نحدث فيها شيئا.

وهٰذا الاتباع هو الذي يجب علينا، وهو سبيل أهل العلم في ذلك.

جعلنا الله جل وعلا وإياكم من المستمسكين بمنهج السلف الصالح، المقتفين أثر أئمة الإسلام في ذلك إنه سبحانه جواد كريم.

وفي الختام أرجو أن تكون هٰذه الدورة دورة نافعة كالدورات التي سبقت، وأن يوفق الله جل وعلا القائمين عليها لتنظيمها، وحسن ترتيبها، وتوفير ما يحتاجه طلاب العلم في هٰذا المسجد.

كما أسأل الله أن يوفق طلبة العلم الذين يُلقون فيها العلم، وأن يعيننا وإياهم علىٰ ما فيه الهدىٰ والسداد، وأن يوفقنا جميعا إلىٰ ما فيه رضاه، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.